التحولات السياسية والمذهبية في الدولة الصفوية بإيران
من مفهوم الأسرة إلى منطق الدولة 1334 /1501

Political and Sectarian shifts in the Safavid state in Iran (from family's concept to the state's logic) 1334/1501

1– د. حمزة عيجولي*، جامعة الجزائر2 أبو القاسم سعد الله (الجزائر)

hamza.aidjouli@univ-alger2.dz

تاريخ الاستلام: 2021/10/05 تاريخ القبول: 2021/12/28 تاريخ النشر: 2021/12/31

ملخص: تعد الدولة الصفوية في إيران 1736/1501م نموذجا للدولة التي تأسست كتطور لنفوذ ومكانة أسرة دينية ذات عصبية قبلية، حيث أن الأسرة الصفوية التي تنسب لصفي الدين إسحاق الأردبيلي 1252/ 1334م، قد تحولت من أسرة دينية ذات مكانة اجتماعية في الهضبة الإيرانية إلى أسرة حاكمة لدولة تأسست فعليا على يد الشاه إسماعيل الصفوي سنة 1501م، والذي أعلن دولته الفتية القائمة على التمذهب الشيعي الاثنا عشري والتي فرضت نفسها كقوة سياسية وعسكرية بغرب اسيا، كما أنها دخلت في صراع وتنافس مع الدولة العثمانية بفعل عدة عوامل استراتيجية واقتصادية وبخلفيات مذهبية وقومية، وقد استمر حكم الصفويين لإيران لمدة فاقت القرنين من الزمن واضعين بذلك أسسا للكيان الفارسي الحديث المستند على الموروث الديني الشيعي والعصبية الإيرانية بمختلف تشكيلاتها القومية.

كلمات مفتاحية: الدولة الصفوية، الهضبة الإيرانية، صفي الدين اسحاق، الشاه اسماعيل الصفوي

*- المؤلف المرسل

Abstract:

The Safavid state in Iran 1501/1736 is considered as a model of the state which was founded as an evolution of the power and social status with tribal fanaticism, in which the safavid film ily that belongs to Safi eldin Ishak Alardibili 1252/1334, has shifted from a religious family with social status in the Iranian plateau to a ruling family of a state founded by "Ismail safawi" in 1501, who declared his Young state which is based on the twelve 'th Shiein state and which imposed itself as a political and militarian power in west Asia, it also entered in a conflict and competetion with the Ottoman Empire because of several strategic and economic factors with a sectarian and national background, the safadiv rule of Iran lasted for more than two centuries; thus laying the foundation for the Persion entity ; the rightful heir of the Sheien religious and the Iranian fanagicism with its varying nationalism.

Keywords: Safavid state- Iranian plateau- Safiuddin Ishaq- Shah Ismail Safavi.

مقدمة:

شهدت الهضبة الإيرانية نشوء عدة دول عبر التاريخ كان لها دور بارز في مسار الأحداث في العالم القديم، وقبل الحديث عن الأوضاع السياسية والتحولات المذهبية لإيران في العصر الحديث، يجب أن نشير أولا إلى موقعها الجغرافي فهي تعد الطرف الشرقي للشرق الأدنى حيث تمتد بين هضبة أرمينيا في الشرق وهضبة بامير[1] في الغرب، وتشمل الهضبة الإيرانية في وقتنا الحاضر جيوسياسيا : إيران وأفغانستان وإقليم بلوشستان غرب باكستان، وهي في إطارها الجغرافي العام تشكل هضبة منحصرة بين

[1] بامير وبالإنجليزية Pamir Mountains تقع في أواسط القارة الآسيوية وهي هضبة محاطة بمجموعة من سلاسلها الجبلية الشاهقة وتقع هضبة بامير تحديداً في أقصى جنوب شرقي جمهورية كازاخستان حاليا مع توغلها في أراضي طاجكستان وقرغيزستان، أنظر: **أطلس العالم**، الدار العربية للعلوم، بيروت، ط1، 2005، ص 90.

منخفضين: الخليج العربي في الجنوب وبحر قزوين وسهل التركمان في الشمال، ويغلب على البلاد الطابع الجبلي والصحراوي وتتخللها بعض السهول[1].

وتشير بعض الدراسات الجغرافية المتخصصة إلى أن التسمية القديمة للخليج والتي وردت في الحوليات والكتب وخرائط البحرية البريطانية هي الخليج الفارسي، بينما تشير دراسات أخرى إلى أن أصل التسمية هي الخليج العربي وقد استعملت العبارتان الخليج العربي والخليج الفارسي في خضم التنافس الإقليمي المعاصر الذي برز بين العرب وإيران في منطقة الشرق الأوسط[2].

وقد استوطنت في إيران شعوب آرية (هندوأوروبية) بفعل موجات متتالية من الهجرات، وأسست هذه الشعوب عدة إمبراطوريات ومدن وقرى، وتعاقبت عليها دول اشتهرت عبر التاريخ، كدولة الميديين, الفرس، والعيلاميين والساسانيين والبارثيين وغيرهم[3].

وتشغل الدراسات الفارسية والإيرانية بمختلف مراحلها التاريخية حيزا معتبرا من مجالات اهتمام الباحثين والمؤرخين العرب نظرا لعد اعتبارات تاريخية وجغرافية وجيو-استراتيجية معاصرة.

وتضم الهضبة الإيرانية عدة أقاليم هي من الغرب إلى الشرق أقاليم: أذربيجان- عراق العجم- كردستان- خوزستان (الأهواز أو عربستان)[4] - كيلان – مازندران – فارس – كرمان – خراسان – بلوشستان – مكران .[5]

ونشير هنا إلى أن كلمة "إيران" مشتقة من اسم الشعوب الآرية التي هاجرت إليها في القديم، ومعناها (إيران: موطن الآريين) ولم يستخدم هذا الاسم في العصر الإسلامي الوسيط وبداية التاريخ الحديث، وإنما تم استخدام مصطلح "فارس" للدلالة على إيران القديمة، وبالتالي يجب أن نفرق بين فارس ككل وإقليم

---

[1] محمد سهيل طقوش, **تاريخ الدولة الصفوية في إيران 1736/1501** , دار النفائس, بيروت, ط1, 2009, ص17.

[2] ظافر محمد العجمي، **أمن الخليج العربي تطوره وإشكالياته من منظور العلاقات الإقليمية والدولية**، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2006.

[3] محمد سهيل طقوش , المرجع السابق، ص17.

[4] تعرف بعربستان أو الأهواز ، وهي الضفة الشرقية للخليج العربي وتحتوي على شط العرب، تستوطنها قبائل عربية أسست عبر التاريخ إمارات ودولا ارتبطت بالضفة الغربية للخليج، وهي محور صراع قديم بين العثمانيين والصفويين، وصراع معاصر بين إيران وسكانها العرب المطالبين باستقلال الإقليم عنها. أنظر: سيد طاهر آل نعمة، **الأحواز "نبذة تاريخية عامة وموجزة"**، موقع الأهواز، نشر بتاريخ 25 مارس 2004، الرابط: http://www.al-ahwaz.com/arabic/1998، ص2.

[5] عباس إسماعيل صباغ, **تاريخ العلاقات العثمانية الإيرانية**, دار النفائس, بيروت, ط1, 1998, ص38.

فارس الواقع إلى الشرق من الخليج العربي ويشكل إقليما من أقاليم الهضبة الإيرانية التي ذكرناها سابقا، فإقليم فارس هو الذي فرض اسمه على كامل الهضبة وظل مصطلحا مستخدما محليا وإقليميا ودوليا للدلالة على إيران إلى غاية تعميم الشاه رضا بهلوي[1] لاسم إيران وذلك خدمة للفكر القومي الذي تبناه[2].

وقد كانت آخر دولة تحكم إيران قبل الفتح الإسلامي هي الدولة الساسانية والتي بالقضاء عليها انتشر الإسلام في كامل الهضبة الإيرانية بسرعة وازدهرت حضارته بها خلال العصر العباسي[3].

وقد برز فيها عدة علماء وفلاسفة ومحدثين وأطباء من بينهم الخوارزمي والبيروني والكرخي والطوسي والفقيه النيسابوري وفخر الدين الرازي، والزمخشري والجرجاني وابن سينا والطبري والبيهقي والبخاري وابن ماجه القزويني...وغيرهم، فقد ساهمت الحضارة الإسلامية بفارس وخراسان في تطور العلوم الإسلامية من طب وهندسة وفلسفة ورياضيات وفلك وفيزياء، وصيدلة وشعر وأدب وموسيقى[4].

ونتيجة لضعف الخلافة العباسية ظهرت الدول الانفصالية في إيران مثل الدولة الطاهرية والدولة الصفارية والدولة السامانية والدولة البويهية ، قبل أن تتعرض البلاد للغزو المغولي منتصف القرن السابع الهجري الموافق للقرن الثالث عشر الميلادي[5].

1-الغزو المغولي والتاريخ الحديث لإيران.

بعد سقوط بغداد سنة 1258م/656هـ بيد المغول وقائدهم هولاكو خان وقعت إيران هي الأخرى تحت سيطرتهم، حيث أصبحت الهضبة الإيرانية ضمن نفوذ الأسر والقبائل المغولية القوية التي سرعان ما تقاتلت وتناحرت فيما بينها وانقسمت إلى عدة دويلات متصارعة ومتفرقة بعد ضعف المغول واضمحلال إمبراطورتيهم[6].

---

[1] حاكم إيران رضا بهلوي (بالفارسية: رضا شاه پهلوی)-(15 مارس 1878 - 26 جويلية 1944), مؤسس الدولة البهلوية، حكم ما بين أعوام 1925 و1941 خلفه ابنه محمد رضا الذي أطاحت به الثورة الإسلامية بقيادة الخميني سنة 1979، أنظر: دونالد ولبر، **إيران ماضيها وحاضرها**، ترجمة: عبد النعيم محمد حسنين، دار الكتاب المصري، القاهرة، ط2، 1985، ص117.

[2] إسماعيل أحمد ياغي ومحمود شاكر، **تاريخ العالم الإسلامي الحديث والمعاصر**، ج1، دار المريخ للنشر، الرياض، 1995 ، ص227.

[3] محمد سهيل طقوش، المرجع السابق، ص18.

[4] حسان حلاق، **مدن وشعوب إسلامية**، دار الراتب الجامعية، سوفنير، ج4، ص431.

[5] محمد سهيل طقوش، المرجع السابق، ص18.

[6] حيدر نزار السيد سلمان "الدولة الصفوية: حقائق تاريخية"، **مجلة ينابيع**، العدد 17، ربيع الأول- ربيع الثاني 1428، ص104.

ثم تعرضت الهضبة الإيرانية لموجة جديدة من الغزو المغولي بقيادة تيمورلنك الذي استولى عليها سنة 1396م/798هـ، وكانت دولته التي أسسها بالقوة والغلبة تركية الطابع (العرق)، فارسية الحضارة والموقع الجيوسياسي، غير أن هذه الدولة هي الأخرى لم تعمر طويلا وتفككت بسرعة بعد وفاة تيمورلنك في (شعبان 807هـ/فيفري1405م)، لتتسارع الأوضاع السياسية في إيران مرة أخرى إلى الانقسام والفوضى بفعل:

• التنازع الأسري بين خلفاء وأبناء تيمورلنك.

• الصراع بين القبائل التركمانية وبخاصة القبيلتين الأكبر والأقوى المستوطنة في الهضبة الإيرانية وشرقي الأناضول والعراق، وهي قبيلتا "القره قوينلو" و"الآق قوينلو".

فالقره قوينلو قبيلة تركمانية سميت بذلك نسبة إلى لون علمها وخرافها التي تمتهن رعيها، فتعرف باسم الخروف الأسود الذي كان رمزا لها، وقد اعتنقت هذه القبيلة المذهب الشيعي الاثني عشري، أما الآق قوينلو فقد سميت نسبة إلى لون علمها وخرافها البيضاء التي كانت رمزا لها، وقد بقيت راسخة على مذهب أهل السنة [1].

• تنامي قوة الأوزبك[2] في منطقة ما وراء النهر[3] متطلعين للتوسع غربا على حساب بلاد فارس[4].

فقد توزعت الهضبة الإيرانية إذًا إلى مجموعة من الكيانات السياسية ذات الطابع الأسري والقبلي مستغلة الفراغ السياسي الملاحظ بإيران أواخر القرن الخامس عشر ميلادي وبدايات القرن السادس عشر ميلادي.

2-ظهور الأسرة الصفوية والمكانة الروحية

لم تستطع قبائل القره قوينلو والآق قوينلو وبقايا الأسرة التيمورية بسط سيطرتها على كامل الهضبة الإيرانية، وبالتالي كانت كل الظروف مواتية خلال نهاية القرن الخامس عشر لبروز قوة جديدة سوف تغير مسار الأحداث في المنطقة تغييرا جذريا.

---

[1] محمد سهيل طقوش، المرجع السابق، ص 18- 19.

[2] الأوزبك (O'zbek) ظهر هذا الاسم خلال القرن الخامس عشر الميلادي في بلاد ما وراء النهر وكان يطلق على الجماعات التركية التي تنتسب إلى أوزبك خان 1343/1313، واستوطنت بلاد ما وراء النهر وتركستان، ويعتبر محمد شيباني خان زعيم الأوزبك ومنشئ الدولة الشيبانية التي أنهت حكم التيموريين، أنظر: محمد سهيل طقوش، المرجع السابق، ص31.

[3] هي البلاد الواقعة وراء نهر جيحون بخراسان فما كان شرقه هي بلاد الهياطلة وما كان غربه هي ولاية خوارزم ،أنظر: ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، دار صادر، بيروت، ج5، ص45.

[4] محمد سهيل طقوش، المرجع السابق، ص 19.

أولا: صفي الدين والتأسيس للأسرة

في الوقت الذي أصبحت إيران مفككة وضعيفة خلال حكم قبيلة الآق قوينلو[1] كانت تنمو في الشمال بإقليم أذربيجان الفارسي وبالتحديد مدينة أردبيل[2]، قوة لأسرة دينية امتهنت الوعظ والإرشاد في بداياتها[3]، عُرِفت بالأسرة الصفوية والتي تُنسَب إلى الشيخ صفي الدين إسحاق الأردبيلي[4] (650هـ/735هـ - 1252م/1334م) الذي كان شيخا لطريقة صوفية ومرشدا دينيا استقر في أردبيل وبها مارس نشاطه ومن اسمه "صفي الدين" أخذت السلالة اسمها (الأسرة الصفوية)، وينسبه مؤرخو الدولة الصفوية إلى الإمام موسى الكاظم ابن الإمام جعفر الصادق.

ويظهر هنا اختلاف كبير بين المؤرخين حول صحة هذا النسب، حيث يشكك فيه البعض ويعتبرون تناقل رواياته بين مؤيدي الأسرة الصفوية يرجع إلى الهالة الدينية التي أكسبها للصفويين ودوره في انتشار أفكارهم وكثرة مريديهم، وينسب هؤلاء المشككون الشيخ صفي الدين إلى أصول آريَّة قديمة وينفون بذلك انتسابه إلى آل البيت.

فالواضح بروز رأيين يعتقد الأول بنسبة الصفويين لآل البيت وذلك لإضفاء الشرعية الدينية على الأسرة وأحقيتها في الحكم والاتباع، والرأي الثاني يعتقد بنسبة الصفويين للآريين وهدفه من ذلك تأكيد الدور الصفوي في بعث القومية الإيرانية بطابع ديني[5].

ويبرز هنا أيضا تضارب في آراء المؤرخين حول التاريخ الذي اعتنقت فيه الأسرة الصفوية المذهب الشيعي[6]، فمنهم من ينسبه إلى المؤسس الأول صفي الدين إسحاق الأردبيلي ويتبنى هذا الرأي المؤرخ الإسلامي محمود شاكر والمؤرخ اسماعيل ياغي[1].

---

[1] انقسمت هذه القبيلة على نفسها إثر تنافس الأسرة الحاكمة بها حيث استقل "آولوند بك" 1497- 1501 بإقليمي أذربيجان وديار بكر، واستقل "مراد بك" 1497- 1502 بإقليمي فارس والعراق، أنظر: عباس إسماعيل صباغ، المرجع السابق، ص39.

[2] أردبيل مدينة تقع في إقليم أذربيجان الإيراني وتقع حاليا في شمال شرق إيران قرب تبريز وبحر قزوين،(نفسه، ص38).

[3] إسماعيل أحمد ياغي ومحمود شاكر، المرجع السابق، ص232.

[4] صفي الدين اسحاق ابن الشيخ أمين الدين جبريل ابن السيد صالح ابن السيد قطب الدين أحمد، يعد الجد المؤسس للسلالة الصفوية التي حكمت إيران بين سنتي 1736/1501 باسم الدولة الصفوية.

[5] محمد سهيل طقوش، المرجع السابق، ص 36.

[6] الشيعة في اللغة هم الأتباع والأنصار ويطلق هذا اللقب في عرف الفقهاء والمتكلمين ومؤرخي التاريخ الإسلامي على الأتباع المتعصبين لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه وبنيه، وقد برزت فيهم عدة فرق متعصبة

ومنهم من ينسبه إلى خلفائه وأحفاده من بعده، ويستقر على هذا الرأي الأخير المؤرخة السورية ليلى الصباغ التي تقول أن تحول الأسرة نحو التشيع كان في عهد حفيد صفي الدين وهو سلطان خواجه علي[2]، كما يذهب المؤرخ الجزائري الغالي غربي إلى أن تحول الصفويين نحو التشيع قد كان في عهد سلطان جنيد.[3]

اكتسب الشيخ صفي الدين شهرة فائقة في أردبيل والعديد من أرجاء الهضبة الإيرانية كشيخ مُرَبٍّ ومرشد ناسك، ويرجع بعض المؤرخين هذه الشهرة إلى ميول الناس في إيران إبان الحكم المغولي (1253-1336) إلى الزهد والعزلة واتباع النسك[4].

ثانيا: صدر الدين وبداية التطلعات

خلف صدر الدين موسى (1335- 1392) أباه صفي الدين في الوعظ والإرشاد والزعامة في أردبيل فاكتسب بذلك الزعامة الروحية، وفي عصره بدأت تطلعات الأسرة الصفوية للعمل السياسي مما أثار ضده الحاكم المغولي لأردبيل "جوبان بن تيمورتاش" الذي نفاه إلى تبريز[5]، وسرعان ما رجع منها إلى أردبيل بعد مقتل جوبان على يد أحد الأمراء المغول الذي أكرم صدر الدين وقرَّبه وهو ما يعطي دلالة قوية على بداية نفوذ الأسرة الصفوية لدى الحكام المحليين[6].

وقد استمرت الاضطرابات في عهد صدر الدين موسى بإيران والعراق مما ساعده على زيادة الالتفاف الشعبي حوله، وقد تميز عهده بـ:

- ارتقاء الأسرة الصفوية وازدياد مكانتها في الأوساط الحاكمة بالهضبة الإيرانية.

خرجت عن المعنى الشرعي لحب ال البيت بل وأخذ التشيع معان سياسية أكثر منها عقائدية. (للمزيد أنظر: محمد سعيد جمال الدين، **دولة الإسماعيلية في إيران**، الدار الثقافية للنشر، القاهرة، ط1، 1999، ص12.)

[1] محمود شاكر وإسماعيل ياغي، المرجع السابق، ص232.

[2] ليلى الصباغ، **من أعلام الفكر العربي في العصر العثماني الأول**، الشركة المتحدة للتوزيع، دمشق، ط1، 1986، ص466.

[3] الغالي غربي، **دراسات في تاريخ الدولة العثمانية والمشرق العربي 1288- 1916**، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط2، 2011، ص73.

[4] عباس إسماعيل صباغ، المرجع السابق، ص40.

[5] العاصمة الثانية للصفويين بعد أردبيل (بالفارسيَّة الفهلويَّة: تَبَريز) هي إحدى أهم وأبرز المدن في إيران وعاصمة مُحافظة أذربيجان الشرقيَّة شمال غرب إيران(أنظر: عباس إسماعيل صباغ، المرجع السابق، ص50)

[6] محمد سهيل طقوش، المرجع السابق، ص 41.

- بداية التطلعات السياسية للصفويين.
- بناؤه لمشهد ومقام على ضريح والده المؤسس صفي الدين وبروزه كمركز ديني وروحي لأتباع الأسرة الصفوية مع تزايد أعدادهم[1].

ثالثا: علاء الدين وبداية التشيع

بعد وفاة صدر الدين موسى ابن صفي الدين خلفه ابنه علاء الدين علي (1392- 1448) في قيادة الأسرة الصفوية والإرشاد، حيث عاصر فترة الاجتياح المغولي لإيران والأناضول[2].

وكسب علاء الدين الملقب بـ"سياه بوش" أو "المسود" للبسه الدائم للسواد تعبيرا عن تشيُّعه لآل البيت ثقةَ تيمورلنك قائد المغول، على خلاف معاصريه من الحكام وزعماء القبائل الذين وقعوا ضحية للغزو المغولي التيموري، بما فيها الدولة العثمانية التي تعرضت لنكبة كبيرة إثر انهزام السلطان بايزيد أمام تيمورلنك في موقعة أنقرة سنة 1402 غير أنها استطاعت تجاوزها.

التقارب الصفوي التيموري:

يُعدُّ التقارب الواضح الذي كان بين علاء الدين علي الصفوي وتيمورلنك المغولي نقلة نوعية في تاريخ الأسرة الصفوية، حيث فتح الباب أمام ازدياد أتباع الأسرة من خلال الأسرى الأتراك الذين تذكر المصادر التاريخية أنه قد بلغ عددهم الثلاثين ألفًا ووهبهم تيمورلنك لعلاء الدين علي حيث أصبحوا من مريدي الأسرة الصفوية وأحد ركائزها الرئيسية التي قامت عليها دولتهم مطلع القرن السادس عشر[3].

كما حصل الشيخ علاء الدين من تيمورلنك على إقطاعات واسعة في إقليم أذربيجان وعراق العجم[4]، ومنح لأولاده مزارع وقرى في أصفهان[5] وهمدان[6] شكَّلت مصدرا مهما للموارد المالية والاقتصادية التي ضمنت استمرار الأسرة الصفوية وقيام دولتها فيما بعد[1].

---

[1] نفسه، ص41.

[2] نفسه، ص42.

[3] عباس إسماعيل صباغ، المرجع السابق، ص41.

[4] عراق العجم منطقة جغرافية تشمل الأراضي الواقعة شرق عراق العرب بما في ذلك مدن مثل أصفهان والري وقزوين وكرمنشاه وتعرف هذه المنطقة أيضا باسم إقليم الجبال تتضمن هذه المنطقة المناطق الجبلية الكردية والفارسية والآذرية من إيران، أنظر: **أطلس العالم**، المرجع السابق، ص88.

[5] أصفهان أو أصبهان هي إحدى مدن إيران ومركز محافظة أصفهان على بعد 340 كم جنوب طهران أصبحت في عهد الشاه عباس عاصمة للدولة الصفوية سنة 1592، نفسه، ص88.

[6] هَمِدان أو همذان (من كلمة "هگمتانه") هي مدينة إيرانية تقع غرب العاصمة طهران وهي عاصمة محافظة همدان.

رابعا: سلطان جنيد والتحول السياسي

توفي علاء الدين علي سياه بوش في القدس أثناء عودته من مكة المكرمة ودُفِن بها، ويُعرف قبره اليوم بضريح الشيخ علي العجمي وقد كان العرب آنذاك يطلقون اسم "العجم" على سكان بلاد فارس والهضبة الإيرانية والوافدين منها[2].

ليخلفه في زعامة الأسرة الصفوية حفيده سلطان جنيد بن إبراهيم (1447- 1460) والذي تعتبر فترة زعامته نقطة تحول في تاريخ المشيخة الصفوية، حيث بدأ يظهر رغباته في الحكم والملك وتلقب بلقب "سلطان" وحوَّل الدعوة المذهبية الشيعية إلى حركة سياسية تعتمد في وجودها على الأعداد الكبيرة من المريدين الذين عبَّأهم جنيد في تنظيم شبه عسكري[3].

فهاجم سلطان جنيد منطقة شيروان[4] بهدف السيطرة عليها كبداية لتأسيس دولته، وإثر معركة بينه وبين حاكمها في 10 جمادى الأولى 864هـ/ 4 مارس 1460م قُتِل فيها جنيد وبمقتله فشلت أولى المحاولات الصفوية في الامتداد الجيوسياسي[5].

ونشير هنا إلى أهمية الزواج السياسي الذي قام به سلطان جنيد حيث تزوج بأخت زعيم قبيلة الآق قوينلو "أوزون حسن"، والذي أمدَّه بالقوة والحماية في مواجهة أعدائه القره قوينلو وحلفائهم.

وقد توضحت في عهد جنيد صورة الصفويين كحزب سياسي ثوري يتبنى المذهب الشيعي بقوة[6]، والذي قد أمَّن مشروعه السياسي والمذهبي بمصاهرته لأكبر قوة سياسية وعسكرية وبشرية في إيران والعراق آنذاك الآق قوينلو.

خامسا: سلطان حيدروالتحول العسكري

خلف سلطان حيدر (1460- 1488) أباه جنيد في قيادة الأسرة الصفوية رغم صغر سنه، حيث أقام في أردبيل تحت رعاية مريدي أسرته الكثر، وقد جنح نحو الهدوء والسلم جنوحا تكتيكيا لتجاوز الفتور الذي شهده الأتباع بمقتل زعيمهم سلطان جنيد في شيروان، ثم بدأ في تنمية قوته العسكرية فحوَّل الطريقة الصفوية تحويلا نهائيا واستراتيجيا من الطور الدعوي إلى الطور السياسي بتأسيسه لجيش عقائدي

---

[1] محمد سهيل طقوش، المرجع السابق، ص42.

[2] نفسه، ص43.

[3] محمد سهيل طقوش، المرجع السابق، ص43.

[4] مدينة استراتيجية تقع على الساحل الغربي لبحر قزوين جنوبي القوقاز معروفة بإنتاجها الكبير للحرير كمادة اقتصادية مهمة آنذاك .

[5] عباس إسماعيل صباغ، المرجع السابق، ص41.

[6] محمد سهيل طقوش، المرجع السابق، ص45.

شيعي متميز بلباسه ذي القلنسوة الحمراء ذات الاثنتي عشرة لفة تعبيرا وتبرُّكا بالأئمة الاثني عشر للشيعة، وعُرِفوا في الأدبيات التاريخية بالقزلباش أي "حمر الرؤوس".

وفي تلك الأثناء كان خاله أوزون حسن زعيم الآق قوينلو قد أكمل إخضاعه للعراق وإقليم أذربيجان وبالتالي أمَّن سلطان حيدر جانبه في العراق وإيران حتى ما وراء نهر جيحون وهو أقصى اتساع بالنسبة للنشاطات الصفوية المبكرة[1].

ولكن سرعان ما توترت العلاقات بين سلطان حيدر وأخواله وأصهاره[2] زعماء الآق قوينلو نتيجة توجُّس هؤلاء الخيفة من تنامي قوة حيدر وزعماء تنظيمه العسكري القزلباش، وقد ساعد الآق قوينلو حاكم شيروان حيث استطاع أن يردَّ حملة حيدر سلطان في موقعة طبرستان[3] سنة 893هـ/ 1488م والتي قُتل فيها سلطان حيدر[4].

ترك حيدر ثلاثة أولاد هم: إبراهيم، إسماعيل وسلطان علي، والذين أقلق نشاطهم زعيم الآق قوينلو وحاكم أردبيل فتمَّ نفيهم بين سنتي 1488 و1494م، وقُتِل بعد ذلك علي وإبراهيم وبقي إسماعيل لاجئا ومتخفيا بكيلان[5] في انتظار فرصة العودة.

وفي الفترة الممتدة بين سنتي 1488 و1499م، بلغت قوة أمراء القزلباش مبلغا كبيرا استطاعوا من خلاله حمل الابن الأخير لسلطان حيدر "إسماعيل ميرزا"[6] من كيلان التي كان يعيش بها سرًّا إلى موطن أسرته الروحي ومنطلق دعوة أجداده أردبيل[1].

---

[1] يُقصد بها بلاد ما وراء النهر.

[2] تزوج سلطان حيدر من ابنة خاله أوزون حسن وهي كاترين حليمة الملقبة بـ"علم شاه" والتي كان جدها لأمها حاكم طرابزون يوحنا الرابع (محمد سهيل طقوش، المرجع السابق، ص46)

[3] طبرِستان (بفتح الطاء والباء وكسر الراء) هو إقليم عرفه العرب والفرس باسمه منذ القرون القديمة، وهو يَقع في شمال دولة إيران اليوم ويَمتد في مُعظمه على الساحل الجنوبي لبحر قزوين عبر سلسلة جبال ضخمة أعطته هيبة عند قدماء العرب كما يَصفه ياقوت الحموي في معجم البلدان.

[4] محمد سهيل طقوش، المرجع السابق، ص46.

[5] كيلان هي مدينة صغيرة إلى الشرق من طهران في إيران وهي المقصودة في هذا الموضع، وهناك قرية عراقية تاريخية بنفس الاسم قرب المدائن (جيلان العراق)، وكيلان الإيرانية كانت أكثر المدن إنتاجا للحرير خلال القرنين 16 و 17 ميلاديين (أنظر: عباس إسماعيل صباغ، المرجع السابق، ص55)

[6] إسماعيل بن حيدر بن الجنيد الصفوي (25 رجب 892 هـ/25 جويلية 1487م - 18 رجب 930 هـ/23 ماي 1524م) مؤسس الدولة الصفوية في إيران، والملقب بإسماعيل الصفوي هو شاه إيران (1501 - 1524)

وشكَّل هذا الرجوع نقطة التحول الأهم في تاريخ الأسرة الصفوية التي ستتحول بفضل جهود هذا الابن وأتباعه ومريديه وأمراء القزلباش وجنودهم، إلى دولة غيَّرت مجرى الأحداث في الهضبة الإيرانية والعراق والأناضول والخليج وغيرها من المناطق.

3-الشاه إسماعيل والتأسيس الفعلي للدولة 907هـ/ 930هـ - 1501م/1524م.

بقي إسماعيل بن سلطان حيدر خمس سنوات في لاهيجان القريبة من كيلان متربيا في كنف "كاركيا ميرزا علي"، وفي هذه المدة نشأ على يد كبار صوفية الصفويين الذين رسَّخوا مبادئ التشيع في نفسه، وفي نفس الوقت تلقَّى تكوينا سياسيا وعسكريا مكثفا حتى صار شابا يافعا وحيويا وزعيما محبوبا لدى مريدي أسرته[2]، والذين تزايدت أعدادهم بشكل كبير قُدِّرت آنذاك بعشرات الآلاف رغم النكسة التي مُنِيت بها الأسرة الصفوية بمقتل سلطان حيدر وقبله سلطان جنيد[3].

وقد عمل إسماعيل خلال تلك الخمس سنوات 899هـ/ 905هـ - 1494م/ 1499م مع أنصاره على نشر الدعوة الصفوية وتوطيد أركانها عبر اتصالات سرية معهم في أذربيجان والأناضول وبلاد الشام[4]، تحقيقا وتنفيذا لطموحاته السياسية والعسكرية[5].

أولا: من مفهوم الأسرة إلى منطق الدولة.

كان هدف إسماعيل من نشر الدعوة الصفوية وتثبيت أسسها الانتقال من الطابع المحلي إلى الإقليمي ومن مفهوم الأسرة إلى منطق الدولة، وقد أدرك أن ذلك لن يتم إلا بالاعتماد على قوة عسكرية مخلصة ومرتبطة به وبأسرته عقائديا ومذهبيا حتى تستميت في الدفاع عنه وعن معتقداته[6].

وهو القائد الديني والسياسي الذي أسس الحكم للصفويين (أنظر: محمد سهيل طقوش، المرجع السابق، ص52)

[1] عباس إسماعيل صباغ، المرجع نفسه، ص41.

[2] محمد سهيل طقوش، المرجع السابق، ص52.

[3] محمد عبد اللطيف هريدي ، **الحروب العثمانية الفارسية وأثرها في انحسار المد الإسلامي عن أوربا**، دار الصحوة للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 1987، ص46- 47.

[4] انتشرت الدعوة الصفوية خارج معاقلها التقليدية في أردبيل وتبريز حيث شملت أجزاء من الأناضول وشمال العراق وبلاد الشام.

[5] ليلى الصباغ، المرجع السابق، ص466.

[6] إسماعيل أحمد ياغي، المرجع السابق، ص233.

استفاد إسماعيل ميرزا من الخلافات الحادة التي كانت بين أمراء الآق قوينلو فرأى أن الفرصة مناسبة للجهر بدعوته والعودة إلى أردبيل، فخرج من لاهيجان مع أتباع أسرته ومريديه متوجها إلى آسيا الصغرى التي كثر بها مؤيدوه نتيجة دعوات مبشري الصفوية بها، فكان فاتحة أعماله العسكرية هو الهجوم على شيروان للانتقام من قتلة أبيه حيدر وجده جنيد.

وقد كان نجاح هذه الحملة العسكرية المبكرة التي قادها اسماعيل ميرزا نصرا معنويا كبيرا للأسرة الصفوية ومؤيديها ومريديها، وفتحت اعينهم بصفة جلية نحو الانتقال إلى الطابع السياسي والعسكري المنظم .

حيث دخلها وقتل حاكمها ونبش مقابر حكامها الأوائل وأحرق جثثهم وغنم ممتلكات وأموال المدينة وسيطر على مدينة باكو القريبة منها[1]، وقد نتج عن الحملة الصفوية الأولى على شيروان أربع نتائج كانت في خدمة التعجيل بتأسيس الدولة الصفوية وهي:

1. ازدياد التفاف سكان الهضبة الإيرانية حول إسماعيل، حيث رأوا فيه منقذا لهم من فوضى تناحر الأسر والأمراء.
2. تضاعف قدرته العسكرية وتوفير المؤونة لجيشه من خلال الغنائم التي حصل عليها في شماخي عاصمة ولاية شيروان وباكو.
3. قربه من معاقل الآق قوينلو التي بقيت القوة الوحيدة التي تعيق تقدمه وسيطرته على باقي المناطق.
4. إحكامه للسيطرة على المداخل الغربية للهضبة الإيرانية[2].

وقد عجَّل انتصار إسماعيل في شيروان بتوجهه نحو مواجهة الآق قوينلو حيث زحف إلى تبريز وفي الطريق إليها التقى في معركة حاسمة مع زعيمهم آلوندبك عند شرور في وادي آراكس بتاريخ 01 محرم 907هـ / 17 جويلية 1501م، والتي انتصر فيها إسماعيل ودخل بعد انتصاره هذا إلى تبريز عاصمة الآق قوينلو واستولى عليها[3].

بدخول إسماعيل لتبريز أعلن نفسه رسميا شاهًا على فارس ليأخذ بذلك صبغة سياسية ويكتسب سلطة زمنية دنيوية إضافة إلى سلطته الدينية الروحية التي ورثها عن آبائه وأجداده الصفويين[4].

---

[1] محمد سهيل طقوش، المرجع السابق، ص53 (نقلا عن الكتاب الفارسي: الأسترآبادي سيد حسن، **أزشيخ تاشا صفا**، اهتمام: إحسان إشراقي، طهران، 1385هـ، ص33)

[2] محمد سهيل طقوش، المرجع السابق، ص54.

[3] نفسه، ص54.

[4] حسان حلاق، المرجع السابق، ص422.

فأصبح يلقب رسميا بالشاه إسماعيل الصفوي كأول حاكم من الأسرة الصفوية[1] لأن الرواد الأوائل لها كانت لديهم الصبغة الدينية فقط، من خلال مركزهم الروحي في الوعظ والإرشاد والتصوف ثم التشيع، حيث فشل سلطان جنيد وسلطان حيدر فيما نجح فيه إسماعيل بقلب الأسرة الصفوية إلى دولة قائمة بذاتها.

وللتحكم بزمام الأمور وتأكيدا للخيار المذهبي لأسرته أعلن الشاه إسماعيل الصفوي أن التشيع هو المذهب الرسمي لدولته الناشئة[2]، ويفسر المؤرخ محمد عبد اللطيف هريدي تبني الشاه الجديد للتشيع برغبته في تحقيق التجانس الديني والمذهبي بين مختلف العناصر القومية والعرقية والقبلية المشكلة للاثنيات المستقرة بالهضبة الإيرانية كعامل مشترك يجمع بينهم ويذيب خلافاتهم. وفي نفس الوقت يضمن مخالفته –أي التشيع- لمذهب القوى التي تحيط بدولته شرقا وغربا، العثمانيين والمماليك والأوزبك[3].

وبهذا الخيار المذهبي للدولة الصفوية الناشئة يكون الشاه إسماعيل الصفوي مؤسسا لأول دولة شيعية في التاريخ الحديث[4]، حيث عمل على نشر هذا المذهب خارج نطاقها ومجالها الحيوي مما استجلب له ولها العداء مع محيطه السني[5]، فلم يكن من المقبول وفق المنطق الاستراتيجي تأسيس كيان شيعي في وسط غير شيعي[6].

ثانيا: الدولة الصفوية وعداوة المحيط:

وجدت الدولة الصفوية الفتية نفسها عند تأسيسها محاطة بمجموعة من القوى يغلب على علاقاتها معها مبدئيا طابع الريبة والحذر، والذي تطور في العديد من المرات إلى العداء والتوتر والصراع المرير وهي:

1) الدولة العثمانية في الأناضول والعراق.
2) قبائل الآق قوينلو في العراق وزعيمها مراد بن يعقوب.

---

[1] ليلى الصباغ، المرجع السابق، ص467.

[2] دونالد ولبر، المرجع السابق، ص86.

[3] محمد عبد اللطيف هريدي، المرجع السابق، ص44.

[4] شهد التاريخ الإسلامي خلال العصر الوسيط نشوء دول شيعية كالفاطميين والحشاشين والقرامطة ...الخ.

[5] حيدر نزار السيد سلمان، المرجع السابق، ص107.

[6] محمود شاكر، **إيران**، المكتب الإسلامي، بيروت، 1986، ص51.

3) إمارة الآق قوينلو في ألبستان[1] شمال غرب إيران.
4) قبائل الأوزبك وزعيمها محمد الشيباني بمناطق خراسان وشمال شرق فارس.
5) القبائل الأفغانية في الشرق[2].
6) الأسطول البرتغالي الذي بدأت قوته تتنامى من خلال تواجده في الخليج العربي.

والملاحظ في هذه القوى المحيطة بالصفويين فيما عدا البرتغاليين أنها قوى إسلامية سنية فصلت الدولة الصفوية الناشئة بينها ،حيث برز الشيعة الصفويون كقوة سياسية ودينية فصلت بين جزئي العالم الإسلامي السني، في الشرق "مسلمو وسط آسيا والهند وأفغانستان"، وفي الغرب "الدولة العثمانية والعراق والمماليك بمصر وبلاد الشام"[3].

وقد كانت الدولة العثمانية أهم وأكبر وأخطر القوى المحيطة بالصفويين، فكان بروز الصراع والاحتكاك والصدام بين القوتين أمرا منطقيا فرضته مجريات الأحداث، حيث دام الصراع العثماني الصفوي لأكثر من قرنين من الزمن 1736/1501 أي منذ تأسيس الدولة الصفوية وإلى غاية سقوطها وقد تعددت أسبابه وتسارعت تطوراته واختلفت نتائجه.

واجه الشاه إسماعيل تلك القوى السابقة الذكر وتمكن في فترة وجيزة لم تزد عن العشر سنوات أن يخضع كامل بلاد الفرس لحكمه فلم يبق من خطر على دولته إلا الأوزبك شرقا والعثمانيين غربا[4].

فأصبحت الدولة الصفوية بقيادة مؤسسها الأول الشاه إسماعيل الصفوي قوة إقليمية هامة بفضائها الجيوسياسي وتكويناتها القبلية وبسطوتها المذهبية، حيث أنه وبعد دخول تبريز واتخاذها عاصمة لملكه، بدأ الشاه بالتوسع في العراق وخراسان وديار بكر وبغداد وضم كامل أقاليم فارس وأذربيجان وبذلك أصبحت مملكته ممتدة من الخليج إلى بحر قزوين[5] ومن منابع الفرات إلى ما وراء النهر.

---

[1] ألبستان مدينة تركية حاليا كانت تعد الحد الشمالي لولاية حلب العثمانية وضعتها معاهدة سيفر التي أنهت الحرب العالمية الأولى ضمن سوريا، ولكن معاهدة لوزان عام 1923 وضعت المدينة مع بقية الأقاليم السورية الشمالية في لواء الإسكندرون ضمن الأملاك التركية .

أنظر: فاضل حسين، **محاضرات عن مؤتمر لوزان و آثاره في البلاد العربية**، منشورات معهد الدراسات العربية العالية، جامعة الدول العربية، 1958، ص39.

[2] حسان حلاق، المرجع السابق، ص425.

[3] دونالد ولبر، المرجع السابق, ص87.

[4] إسماعيل احمد ياغي، المرجع السابق، ص 233.

[5] ورد ذكره في الكتب القديمة باسم بحر الخزر.

حيث استطاع الشاه اسماعيل أن يحقق إنجازا كبيرا للأسرة الصفوية بتعزيز مكانتها الدينية والاجتماعية بسلطة سياسية وعسكرية، ورغم دوره الكبير في هذا المنجز إلا أن تلك التحولات المذهبية والسياسية التي مرت بها الدعوة الصفوية من أسرة ذات طابع ديني ومكانة روحية إلى دولة كبرى تشغل حيزا جغرافيا فرضها كقوة إقليمية ودولية، قد كان عملا تراكميا بدأ مع صفي الدين إسحاق الأردبيلي (توفي سنة 1334م)، ثم أبنائه وأحفاده من بعده وصولا إلى الشاه إسماعيل (توفي سنة 1524م).

قائمة المراجع:

1. أحمد ياغي إسماعيل وشاكر محمود، **تاريخ العالم الإسلامي الحديث والمعاصر**، ج1، دار المريخ للنشر، الرياض، 1995.
2. **أطلس العالم**، الدار العربية للعلوم، بيروت، ط1، 2005، ص 90.
3. آل نعمة سيد طاهر، **الأحواز "نبذة تاريخية عامة وموجزة"**، موقع الأهواز، نشر بتاريخ 25 مارس2004، الرابط: http://www.al-ahwaz.com/arabic/1998-.
4. جمال الدين محمد سعيد، **دولة الإسماعيلية في إيران**، الدار الثقافية للنشر، القاهرة، ط1، 1999.
5. حسين فاضل، **محاضرات عن مؤتمر لوزان و آثاره في البلاد العربية**، منشورات معهد الدراسات العربية العالية، جامعة الدول العربية، 1958.
6. حلاق حسان ، **مدن وشعوب إسلامية**، دار الراتب الجامعية، سوفنير، ج4، ص431.
7. الحموي ياقوت، **معجم البلدان**، دار صادر، بيروت، ج5.
8. شاكر محمود، **إيران**، المكتب الإسلامي، بيروت، 1986.
9. صباغ عباس إسماعيل, **تاريخ العلاقات العثمانية الإيرانية**, دار النفائس, بيروت, ط1, 1998.
10. الصباغ ليلى ، **من أعلام الفكر العربي في العصر العثماني الأول**، الشركة المتحدة للتوزيع، دمشق، ط1، 1986.
11. طقوش محمد سهيل, **تاريخ الدولة الصفوية في إيران 1736/1501** , دار النفائس, بيروت, ط1, 2009.
12. العجمي ظافر محمد، **أمن الخليج العربي تطوره وإشكالياته من منظور العلاقات الإقليمية والدولية**، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2006.
13. غربي الغالي، **دراسات في تاريخ الدولة العثمانية والمشرق العربي 1288- 1916**، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط2، 2011.
14. نزار حيدر السيد سلمان، "الدولة الصفوية: حقائق تاريخية"، **مجلة ينابيع**، العدد 17، ربيع الأول- ربيع الثاني 1428، ص104.

15. هريدي محمد عبد اللطيف، **الحروب العثمانية الفارسية و أثرها في انحسار المد الإسلامي عن أوربا**، دار الصحوة للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 1987.
16. ولبر دونالد، **إيران ماضيها وحاضرها**، ترجمة: عبد النعيم محمد حسنين، دار الكتاب المصري، القاهرة، ط2، 1985.